مراجعات

عبرة وذكرى
أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده

تحقيق ودراسة خالد زيادة

(دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت١٩٧٨) ٢٥٢ صفحة من القطع المتوسط .

لقد مضى ما ينيف على السبعين عاما منذ صدور هذا الكتاب ـ الوثيقة غداةالانقلاب العثماني وإعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد الثاني (٢٤تموز ١٩٠٨) . وفي ذلك يقول سليمان البستاني« اننا تحرر هذه السطور ولم يكد يمر عشرون يوما على استلام الاحرار ازمة الاحكام »(ص ١٨٨) . على ان طابع العمالة لا يفقد هذا الكتاب اهميته من الناحية الوثائقية والسياسية والتراثيةالتاريخية ولا غرو فان العنوان الذي اختارهسليمانالبستاني ليتصدر غلاف الكتاب عن الدولة العثمانيةقبل الدستور وبعده ـ « عبرة وذكرى ـ »يهدف الى استخلاص العبرة من احوال البلاد في ظل عهد الاستبداد الحميدي ، والى توجيه الاحرار ورجالات الاصلاح صوب الاستفادة من امثولات الماضي . كما يرمي الى تخليد الذكرى التي تمثلت باعلان الدستور إثر حركة الانقلاب العثماني .

وفي ذلك يقول البستاني مختتما عرضه السريع وتاركا المجال لغيره من الكتاب ودعاة الى الاصلاح ، وتحت عنوان« الدولة العثمانية بعد خمس وعشرين سنة » ، ما نصه :« هذه عجالة سطرناها في شؤون البلاد العامة عبرة وذكرى ، وهذا ما تراءى لنا وجوب الخوض فيه إبان هذا الانتقال الغريب والانقلاب العجيب . وإن هو إلا قطرة من عباب المباحث التي يجب على كتاب العثمانيين ان يخوضوا غمارها ، استلفاتا لانظار إخوانهم وحكومتهم الى كل فرع من فروع الاصلاح ،مما يتناول البلاد برمتها او ينحصر خاصة في كل قطعة منها » . (ص ٢٢٧) .

ويوجز سليمان البستاني في صفحات تمهيدية موجهة « الى ابناء الوطن العثماني ـ وبعد إهداء الكتاب الى روح مدحت باشا ، ابي الاحرار العثمانيين ـ الطابع العام للآراء والافكار التي يعرضها في كتاب « عبرة وذكرى » . فالمؤرخ لا بدله من التاني في تدوين الوقائع ،« ريثما يستجمع مادته وتمر فترة تسكن في خلالها ثورات الفكر المضطربة » (ص ٨٠) . لكن الاحداث تمر متسارعة الخطى ، والمؤلف ليس« من ابناء السياسات » ، والواجب يفرض عليه ان يدلي بدلوه بين الدلاء ،وخير البر عاجله : ـ« وان نجمع على هذه الصفحات بعض ما وعته الذاكرة فيما مضى ، بالنظر الى الدستور العثماني وما يتراءى لنا من نتائجه المقبلة ، وما ينال العثمانيين من رغد العيش بخفوق اعلام الحرية فوق رؤوسهم ،وفك عقال العقل والفكر واللسان ، وإطلاق عنان التجارة والصناعة ، وتمهيد سبل الزراعة واستخراج ثروة البلاد الدفينة تحت التراب والمنبوذة على رؤوس الجبال ، وما يخيم عنه من اصلاح جباية الاموال ومالية البلاد (ص ٨٠) .

العثمانية اولا

ولربما جاز وصف الكتاب بانه يتضمن برنامجا وضعه سليمان البستاني لرفع شأن الفكرة العثمانية ولكي يسترشد به الانقلابيون خلال فترة جلوسهم على مقاعد الحكم . إنه أشبه ما يكون بالبرنامج الاصلاحي الشامل ـ على حد قول محقق الكتاب في الدراسة التي قدم له بها . لكن الانطباع الذي يخرج به القارىءالمتتبع لسيرة حياة المؤلف الى جانب متابعته للافكار والاراء المبثوثة في صفحات